محنة أبن رشد

أسبابها وتداعياتها الفكرية والسياسية

محمد حسين بشير لطفي محمد علي
كلية الاذاب الاصابعة – جامعة غريان

تاريخ الاستلام: 2024/11/17م
القبول: 2024/11/24م.
تاريخ النشر: 2024/12/01م

الملخص:

يتناول هذا البحث محنة ابن رشد التي تعتبر أحد المراحل الفارقة في التاريخ الفلسفي الإسلامي، وذلك من خلال تحليل السياق التاريخي، والاجتماعي الذي أحاط بهذه المحنة، واستعراض أسبابها، وتناقش دوافعها الرئيسية وبيان تداعياتها الفكرية والسياسية، مع التركيز على تأثيرها، وموضحا لآثارها على الفلسفة الإسلامية والغربية، كما بيّن الضغوطات السياسية والدينية التي أدت إلى نفيه وحرق كتبه، مما أثر علي انتاجه الفلسفي وارتباط العلاقة بين الفكر والسلطة في تلك الحقبة بعد شيوع تيار المحافظة والتقليد.

مقدمة:

يعتبر ابن رشد من أبرز الفلاسفة والعلماء في العصور الوسطى، وقد ترك بصمة واضحة في التفكير الفلسفي واللاهوتي، كما عمل على ربط الفلسفة اليونانية بالفلسفة الإسلامية، مما جعله يحظى بشخصية استثنائية في عصره، ناهيك عن أنه ترك أثرًا فكرياً وفلسفياً خاصةً في أوروبا والعصور التي تلته.

وتتناول دراسة "محنة ابن رشد" استعراضاً للسياق التاريخي الذي أحاط بها، وتحليل أسبابها، ومناقشة تداعياتها الفكرية والسياسية، وصولاً إلى أثرها على الفلسفة الإسلامية خاصة والفكر الغربي عامة.

هذا وتبرز أهمية موضوعنا تسليط الضوء على دور ابن رشد كفيلسوف وبيان أثر أعماله في التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص عامةً، وفي عصرهِ وبعدهِ.

وقد عملنا على تقسيم هذا البحث إلي ثلاث مباحث رئيسية على النحو التالي:

المبحث الأول: السياق التاريخي والاجتماعي لمحنة ابن رشد.

المبحث الثاني: أسباب وتفاصيل المحنة التي تعرض لها ابن رشد.

المبحث الثالث: تداعيات محنة ابن رشد وتأثيرها الفكري.

هذا وسنسلط الضوء على التحديات الفكرية والسياسية التي واجهها فيلسوفنا ابن رشد، وبيان حدّ تأثير تلك المحنة على منتوج ابن رشد الفكري والفلسفي، وهل ثمة علاقة وطيدة تربط الفكر بالسلطة ؟ وهل أثرت الظروف التاريخية والسياسية التي مرّ بها فيلسوفنا على إبداعه الفكري والفلسفي؟.

المبحث الأول: السياق التاريخي والاجتماعي لنكبة ابن رشد.

شهدت بلاد الأندلس تحولات سياسية واجتماعية، نتيجة للصراع بين الفلسفة والدين مما تسبب في مواجهة ابن رشد، لمحنة عُرفت تاريخيًا بـ" نكبة ابن رشد"، تعرض من خلالها للنفي، وحُرقت العديد من مؤلفاته.

فكانت تلك المحنة نقطة تحول في مسيرة ابن رشد، حيث انعكست على مكانته الفكرية في العالم الإسلامي الذي لم يُقدِر فكرهُ وفلسفته، في حين كان له تأثيراً قوياً تجاوز محيط عالمنا الإسلامي فوصل إلى الغرب الأوربي الذي أُعجب بأفكاره الفلسفية أيما إعجاب، فلم تكن محنته تلك عقبة تُعيق وصول أفكاره إلى الغرب؛ بل اعتُبرت المرجع الرئيسي وحجر الزاوية في الفكر الرشدي اللاتيني، وهكذا كانت له قيمة عظيمة عند الغرب بقدر قيمة أفكاره وفلسفته، بل اعتبرت أفكاره

وأراءه الفلسفية بمثابة الجسر المتين الذي يربط الفلسفة الإسلامية بالفكر الغربي، وهذا يدل على أن ابن رشد كان له ولأفكاره الفلسفية تأثير قوي على ثقافة وفكر أوربا.

ابن رشد والخليفة أبو يعقوب المنصور:

امتاز ابن رشد بالحكمة والعلم وشرف المنبت، وازداد مجده بتقربه من الخليفة يوسف أبي يعقوب الذي عرف قدره وفضله، فكان داعماً لهُ إلا أن ذلك الدعم غالباً ما يكون محاطاً بالعديد من التحديات من قِبل المغرضين والحاسدين ، فيعملون على التآمر عليه والكيد لهُ. وما تعرض له ابن رشد هو في الحقيقة يتعرض له كل رجل ناجح، فالناجح لا يأمن حسد معاصريه، ولا ينجو من غيظهم وانتقامهم مهما كان نافعًا وطيب القلب.

إن حب ابن رشد للمعرفة والفلسفة انعكس عليه إيجاباً ودفعه إلى تجاوز العديد من العقبات التي تعترضه، في مقابل ذلك حاول أعداؤه الإحاطة به مرة بعد مرة، فأخفقوا في البداية لأن الخليفة المنصور كان في بداية عهده محبًا للفلسفة مجاهرًا بذلك، فاتكأ عليه ابن رشد وكان داعماً قوياً لهُ.

ولما كان الخليفة المنصور قد تداخل في فكره أو عقله شيئاً من الزهد والتصوف، تحولت نفسه عن الحكمة والحكماء بسبب ما لحقه من التطور العقلي، الذي حبب إليه التصوف والالتجاء إلى الأولياء والزهاد ونفّرَهُ عن حب الفلسفة والميل لها، وهنا كانت الفرصة سانحة لأعداء ابن رشد، ومعولهم في ذلك الخليفة أبو يعقوب، حيث تسلح هؤلاء الأعداء، وأنصارهم من حاشية الأمير، كعادتهم، وعادة من مضى قبلهم، ومن أتى، وسيأتي بعدهم من أعداء حرية العقل الإنساني بسلاح المدافعة عن شريعة الإسلام(1) عندها قرر أبو يعقوب المنصور الموحدي إلحاق الأذى بابن رشد وجماعة من العلماء.

وبالفعلّ أصدر الخليفة منشورات يتهم فيها ابن رشد وجماعته بأنهم ضلوا الطريق فوصل بهم الحال إلى أنهم انحرفوا عن الدين واصفاً لكتبهم ومؤلفاتهم بأنها " :مسطورة في الظلال ... ظاهرها موشح بكتاب الله وباطنها مصرح بالإعراض عن الله ... أسياف أهل الصليب دونها مفلولة وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم، ويخالفونها بباطنهم وغيهم وبهتانهم"(2).

إن ما قرره الخليفة فيما يخص إلحاق الأذى والضرر بابن رشد ومريديه، عُدّ عند المهتمين بفكره نكبةً لهُ والتي بقيت إلى حد اليوم لغزاً محيراً استعصى فهمهُ، وتفسيره، فما هي إلا تخمينات لا ترقى إلى مستوى المعقولية التي تجعل الحدث مفهوماً، والتفسير المقترح مقبولاً.

المبحث الثاني : أسباب و تفاصيل محنة ابن رشد.

اعتلى ابن رشد منصب القضاء في اشبيلية، إلي جانب عكوفه علي تفسيراته في الفلسفة، وبسبب قربة من الخليفة وخوف المقربين من سلطتة اتهم بالكفر و الالحاد من جانب عدد من علماء الأندلس والمعارضون له آنذاك فأصدر الخليفة يعقوب المنصور منشوراً من قرطبة عممه على ضواحي مملكته بالمغرب والأندلس ولطول المنشور سوف نقتصر على عرض بعض ما جاء فيه لتتضح الرؤية للقارئ، يقول المنشور:" وقد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقرَّ لهم عوامهم بشفوف عليهم في الإفهام فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق، ... بُعدها من الشريعة بُعد المشرقين ... يوهمون أن العقل ميزانها، والحق برهانها ... ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين أنس .... فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ... لأن الكتابي يجهد في ضلال ... وهؤلاء جهدهم التعطيل ... دبت عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان، إلا أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قد منى لهم على شدة حروبهم، وأعفى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم. وما أُملي لهم إلا ليزدادوا إثماً. وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً، ومازلنا،- وصل الله كرامتكم- نذكرهم على مقدار ظننا فيهم" (3) ثم يضيف منشور يعقوب المنصور الموحدي قائلاً:" فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذَ كتابِ صاحبها بالشمال، ظاهرها موشح بكتاب الله، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله، لُبس منها الإيمان بالظلم وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم. مذلة للإقدام وسم يدب في باطن الظلام، أسياف أهل الصليب دونها مفلولة، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة. فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم، ويخالفونها بباطنهم وغيهم وبهتانهم ... فلما وقفنا منهم على ما هو قذىً في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين، نبذناهم في الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصي السفهاء من الغواة. وأبغضناهم في الله كما أنا نحب المؤمنين في الله. "(4) ثم يزيد الخليفة في اتهام ابن رشد وأتباعهِ ويُغالي في ذلك مخاطباً عامة الناس وخاصتهم، قائلا: " فاحذروا هذه الشرذمة على الإيمان، حذركم من السموم السارية في الأبدان. ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه . وإليها يكون مآل مؤلفه

وقارئه ومآبه. ومتى عثر منهم على مجدٍ في غلوائه عمٍ عن سبيل استقامته واهتدائه ، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف ... والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ويكتب في صحائف الأبرار تظافركم على الحق واجتماعكم . أنه منعم كريم"(5)

تداعيات محنة ابن رشد.

أُتهم ابن رشد بالكفر والهرطقة، واعتُبرت أفكاره العقلانية وتفسيراته للفكر الأرسطي تهديدًا للسلطات الدينية، وتزامن ذلك مع تصاعد التيارات الأصولية في المجتمع الإسلامي فكانت المحنة، وعلى غرار هذا وذاك تمت محاكمة ابن رشد وأُصدر قرار نفيهِ في سنة 1195م.

ولعلّ النفي الذي تعرّض إليه ابن رشد والتحديات التي واجهها في ظلّ بيئة ثقافية واجتماعية معقدة، والنكبة التي حلّت بهِ، يُعدّ نقطة تحول في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي، إذ أدت إلى تراجع تأثير الفلاسفة العقلانيين واستمرارية تأثير الفكر التقليدي، وبالرغم من التحديات التي واجهها ابن رشد إلا أن إرثهُ استمر في التأثير في الفلسفة الغربية من خلال ترجماته وأعماله، مما جعل من محنتهُ تتجاوز حدود الزمن وتبقى محط اهتمام الباحثين والتي اشتهرت عندهم فيما بعد بالنكبة.

هذا وتذكر لنا المصادر التاريخية بأن الخليفة الموحدي نفى ابن رشد إلى "اليُسانة" وهي " قرية قريبة من قرطبة " ونفى عالماً آخر إلى ناحية أخرى بينما فرّ آخرون، وأمر بإحراق كتب الفلسفة جميعاً وكذلك علوم الأوائل، ولم ينجى من الحرق إلا علوم الطب والحساب والفلك.

إن ما يثير الانتباه في هذا المنشور، هو تناقض مضمونه مع موقف المنصور وموقف والده أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فالمصادر تجمع على أن الخليفة أبا يعقوب والد المنصور، كان شغوفاً بالفلسفة، فأمر بجمع كتبها والبحث عنها في سائر أنحاء المغرب و الأندلس، ولم يكن الخليفة أبو يعقوب يجمع الكتب للزينة ، بل كان يشتغل بدراستها ، فكان له حظ كبير من الثقافة الفلسفية.

وفي هذا الصدد تذكر لنا بعض المصادر أن طبيبه الفيلسوف الشهير ابن طفيل قال لابن رشد: "سمعت أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويُقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مآخذها على الناس ولما كان ابن طفيل آنذاك كثير المشاغل فقد اقترح على ابن رشد أن يتولى تلك المهمة، وقدمه إلى الخليفة أبى يعقوب، الذي ناقشه في مسائل فلسفية، وقبِل ابن رشد المهمة،

وشرع في تلخيص كتب ارسطو "أي شرحها" بل إن الأمر فاق ذلك بكثير وذلك بتعيين ابن رشد قاضياً على إشبيلية، ثم قرطبة، وبمرسوم من الخليفة أبو يعقوب والد المنصور، علاوة على عمله كطبيب خاص للخليفة إلى جانب ابن طفيل، وهو المنصب الذي خَلَفَ فيه الأخير بعد وفاته، لينفرد كطبيب خاص للخليفة المنصور ذاته، وليستمر في التأليف في الفلسفة شارحاً لأرسطو ثم لجالينوس من بعده(6)، إضافة إلى كتبه التي من تأليفه ككتابه(فصل المقال) الذي بينَ فيه وجوب دراسة الفلسفة من وجهة نظر الشرع وكتابه(الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة)الذي خصصه لتحليل المذهب الأشعري ونقده، ثم كتابه الشهير(تهافت التهافت) الذي ردَ فيه على الغزالي مبيناً فساد حججه وبطلان اتهاماته للفلاسفة، وقصور ابن سينا عن التعبير عن القضايا الفلسفية كما عرضها أرسطو، أما الخليفة المنصور الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 580 هـ، فقد كان عالماً متمكنًا يجمع حوله صفوة من العلماء والمفكرين، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء ابن رشد وشروحه، ولا سيما في علاقة الدين بالفلسفة، وبهذه الكيفية احتفظ ابن رشد بمكانته في البلاط الموحدي، وصار ملازماً للمنصور ويحترمه احتراماً كبيراً، بل كان الخليفة يُعزز من قدر ابن رشد بتقديمه في مجالسه على كبار رجال الدولة، واستمر ذلك حتى صدور المنشور المذكور، وما رافقه من تقرير نفي ابن رشد، وإحراق لكتب الفلسفة، إلا أن ذلك الحكم لم يدم طويلاً، فمحنته لم تدم سوى نحو سنتين أو ثلاث على أقصى تقدير(593-595ه) حيثُ عفا المنصور عن ابن رشد، وعن الفلسفة كفكر وأعاده إلى سابق مكانته، ولو أنه لم يعمر بعد ذلك سوى سنة واحدة إذ توفي في سنة 595 هـ الموافق1198م عن عمر 75سنة (7)

محاولات تفسير النكبة.

بالنظر إلى ما سبق ذكره بشأن المرسوم الذي أصدره الخليفة الابن بتحريم الاشتغال بفقه الفروع، والاقتصار على القرآن والحديث من جهة، وبين المواقف العلمية التي تواتر الخبر عنها حول ميل الخليفة الأب للفلسفة وعلومها المختلفة العقلية منها وغيرها والرفع من مكانة ابن رشد إلى أعلى المناصب والمراتب، من جهةٍ أخرى، يحتاج منا إلى تفسير يوضح بيان ما ورد في منشور الخليفة المنصور الذي يهاجم الفلسفة منذ قيامها في سالف الدهر، ويتهم كُتبها بالبعد عن الشريعة بعد المشرقين، فهذا التناقض لا يمكن تجاوزه وفهم حقيقته إلا بالكشف عما يثوى وراء عبارات لافتة للنظر كالعبارة السابقة " فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غواياتهم وقف لبعضعم علي كتب مسطورة في الضلال، كتب خطيرة على الدولة خطر أسياف أهل الصليب، كتبها بعضهم" وُقِفَ

عليها عندما أراد الله فضيحة عمايتهم ... أي إن زمن الإطلاع على " كتب الضلال " هذه حصل مؤخراً، قبل قرار النفي[8].

ومادام الأمر كذلك فإنه يُحتم علينا طرح السؤال التالي والتنقيب من خلال الدوريات وكتب التراجم عن ماهية نكبة ابن رشد وأسبابها؟.

في الحقيقة إن أسباب هذه النكبة ليست سبباً واحداً وإنما أرجعه المؤرخون إلى عدة أسباب أخرى، فنحن نعرف أن ابن رشد قد تولى القضاء في إشبيلية ثم بعد ذلك في قرطبة، وأنهُ كان مستقيماً زاهداً نزيهاً عفيفاً، ومعروف عنه أيضاً أنه اشتغل طبيباً في بلاط الخليفة ويعد من أبرز المقربين إليه ولعلّ حظوته بقرب الخليفة أشعلت نار الغيرة والحسد، ومنافسة شديدة من أهل قرطبة.

لهذا جدّ بعضهم للإيقاع به لدى الخليفة فعمدوا إلى مؤلفاته واستخرجوا منها أشياء: " تأولوا الخروج فيها عن سنَن الشريعة، وإيثار لحكم الطبيعة، و حشروا منها ألفاظاً عديدة، وفصولاً ربما كانت غير سديدة، وجمعت في أوراق وقيل إن بعضها ألغي بخطه".(9)

ومن المعلوم أن بعض كتب التراجم تركت لنا أسباباً لمحنة ابن رشد، وهي عبارة عن تخمينات، بمعنى أنه لم يتم التحقق من صدقها ومن هذه الأشياء: ما قيل من أنه وصف الزرافة في كتابه الحيوان وقال قد رأيتها عند ملك البربر فلما بلغ ذلك المنصور صعب عليه ما قاله ابن رشد، وحَسِبَ ذلك إهانةً لهُ ولأسرته المالكة، وكان ذلك أحد الأسباب التي نقِمَ بها على ابن رشد وأبعده من مجلسه، وتزيد الرواية في المبالغة في صنع اعتذار ابن رشد، وتنقل إلينا أنه لما عرض عليه ذلك قال:" إنما قلت: ملك البرين – بر المغرب وبر الأندلس - وإنما تصحّفت على القارئ فقال ملك البربر، وهذا من التخمينات الواهية التي تكذبها الوقائع.

فكتاب الحيوان ألفه ابن رشد في إشبيلية سنة 565 هـ ، كما نص على ذلك هو نفسه عندما كان قاضياً فيها لأبى يعقوب يوسف أي قبل تولي المنصور الخلافة بحوالي ست سنوات، وخمسة عشر عاماً قبل هذه المحاكمة (10) ومن ذلك ما رواه الذهبي في سيرة يعقوب المنصور بعد ذكره غضب المنصور من مسألة ملك البربر وهذا نصه بقوله: " فكان هذا مما أحنقهم عليه ولم يظهروه، ثم إن قوماً ممن يناوئه بقرطبة ويدعي معه الكفاءة في البيت والحشمة سعوا به عند أبى يوسف المنصور بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص ... فوجدوا فيه بخطه حاكياً عن بعض الفلاسفة قد ظهر أن الزُهرة أحد الآلهة فوافقوا أبا يوسف على هذا فاستدعاه بمحضر من الكبار بقرطبة وقال له

أخطك هذا فأنكر فقال أبو يوسف لعن الله كاتبه وأمر الحاضرين بلعنه ثم أمر بإخراجه مهانا (11)"

ومن المؤرخين من يعلل ذلك بأسباب لا تتعلق بشخصية الخليفة أو أحد من الناس، ولكنها تمس العقيدة وتخدش الإيمان، فمن ذلك كلمة بدرت من ابن رشد كما يقولون من غير قصد وذلك أنه حين شاع في الأندلس والشرق على ألسنة المنجمين أن ريحاً عاتية تهب في يوم كذا وكذا، وتهلك الناس، استدعى والي قرطبة آنذاك طلبتها وفيهم ابن رشد، وهو القاضي بقرطبة يومئذ، ففاوضهم في ذلك وسألهم عن شأن تلك الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات الكواكب، وقد كان أبو محمد عبد الكبير حاضراً فقال في أثناء تلك المفاوضة إن صح أمر هذه الريح فهي ثانية الريح التي أهلك الله بها قوم عاد، إذ لم تعلم ريح بعدها يعم هلاكها، فانبرى له ابن رشد، ولم يتمالك أن قال " والله وجود قوم عاد ما كان حقا فكيف سبب هلاكهم ؟، فسقط في أيدي الحاضرين وأكبروا هذه الزلة، التي لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات القرآن"(12)

هذا ومن بين التهم التي أُلصقت بابن رشد، قوله بالحقيقة المزدوجة، أي الحقيقة العقلية المنطقية، والحقيقة الدينية، لكن ابن رشد قال بحقيقة واحدة؛ مفادها" أن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له" (13) لكن الطريق إلى هذه الحقيقة، تختلف حسب طِباع الناس، وعقولهم.

أما صاحب المعجب (عبدالواحد المراكشي) فيورد للنكبة سببين :أحدهما جلي، والأخر خفي، فأما الخفي وهو أكبر أسبابها كما يقول: " هو الحنق المتنامي في صدر المنصور بسبب عدم مراعاة ابن رشد ما يتعاطاه خدمة ملوك الأمم ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق " ويذكر تهمة " ملك البربر " بصدد الزرافة وقد بينا ما في هذا النص من الضعف والتناقض، وأما السبب الجلي أو المباشر فهو تهمة " الزُهرة أحد الآلهة " وقد استبعدناها هي الأخرى لأن الأمر يتعلق بحكاية كلام منسوب إلى بعض فلاسفة اليونان، وما يبقى معقولاً في الروايات التي تحاول إلتماس السبب في محنة أبى الوليد أمران: أحدهما إجماعها على أن هذه الأسباب إنما كانت ذريعة، وأن السبب الحقيقي هو الوحشة التي استحكمت بين الخليفة المنصور وبين ابن رشد بسبب ما يُعزى للمنصور من سلوك فج غير لائق بالملوك، وما يُروى من أن ابن رشد لم يكن يتعامل معه بعبارات (الإطراء والتقريظ) بل بكلام من جنس " أتسمع يا أخي"، و الثاني هو إجماع الروايات كذلك على أنه قد نشأ بينه" ابن رشد "وبين أهل قرطبة قديماً وحشة جرّتْها أسباب المحاسد ومنافسة طول الجوار، قوماً مما يناوئه من أهل قرطبة ويدعي معه الكفاءة في البيت

وشرف السلف سعوا به عند أبى يوسف يعقوب المنصور ووجدوا إلى ذلك طريقاً بأن أخذوا بعض التلاخيص التي كان يكتبها فوجدوا...العبارة التي تتحدث عن الزُهرة ، ويبدو أنها هي التي حوكم بها رسمياً(14).

المبحث الثالث: تداعيات محنة ابن رشد وتأثيرها الفكري.

إن العائق الأساسي الذي يحول بيننا وبين تصديق مثل هذه التهم هو أن المحنة التي مرّ بها ابن رشد لم تكن تخصه وحدهُ بل أصابت معه الجماعة التي وصفت بأنها تنتمي إلى الفضلاء والأعيان، يقول ابن أبي أصيبعة: ثم أن المنصور، فيما بعد نقم على أبى الوليد بن رشد وأمرهُ أن يقيم في أليسانة وهي بلد قريب من قرطبة، وأن لا يخرج منها، ونقم أيضاً على جماعة أخرى من الفضلاء الأعيان وأمر أن يكون في مواضع أخرى، وأظهر أنه فعل بهم ذلك بسبب ما يدعي فيهم من إنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل. ثم إن جماعة من الأعيان بإشبيلية شهدوا لابن رشد أنه على غير ما نسب إليه فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنة خمسة وتسعين وخمسمائة" ثم يضيف: وقال القاضي أبو مروان ومما كان في قلب المنصور عن ابن رشد أنه كان متى حضر مجلس المنصور وتكلم معه أو بحث عنده في شيء من العلم يخاطب المنصور بأن يقول: "أتسمع يا أخي " ثم يذكر قضية الزرافة...(15)

إن هذا السبب الذي يصفه القاضي أبو مروان لهو من جنس الأسباب السابقة، ثم أن هذه العبارة لا تكفي لتفسير هذه المحنة، بحيث لو كان الأمر يتعلق بعبارة أو أخرى لابن رشد وردت في كتبه أو بمخاطبتة للخليفة بعبارات لا تليق بالمقام، يكون السؤال هاهنا لماذا حُشر مع ابن رشد الأعيان الفضلاء؟ لا بد أن يكون هناك سبب آخر غير، الأمر الذي جعل بعض من أرخ لابن رشد أمثال، محمد عابد الجابري يرد سبب النكبة إلى السياسة حيث يرى أنه:" بدون شك ما قيل من أن سبب نكبته هو اختصاصه بأبي يحي أخي المنصور ونحن نرى أن من مظاهر هذا الاختصاص كتابه الضروري في السياسة الذي اختصر فيه جمهورية أفلاطون، والذي يخاطب فيه الشخصية الرسمية التي طلبت منه هذا الكتاب بقوله، في خاتمته: أعانكم الله على ما أنتم بصدده وأبعد عنكم كل مثبط بمشيئته وفضله، لا يمكن أن تكون الشخصية التي طلبت منه الضروري في السياسة غير الأمير أبى يحي نفسه، عندما بدأ في الدعوة إلى نفسه بالأندلس إثر مرض المنصور سنة 587هـ ... إلا أن رياح القدر تجري بما لا تشتهي سفن أبا يحيى، فقد شفي المنصور وعاد إلى الحكم وانتقم من أخيه يحيى وأعدمه كما انتقم من ابن رشد وأمثاله، ويدعم الجابري هذا الطرح من خلال بعض

المعطيات الواردة في كتاب جوامع سياسة أفلاطون، من قبل الإهداء الذي اعتبره الجابري موجه لأبي يحيى، يقول:" فابن رشد يصرح بأن المهدى إليه ساعده على فهم النص السياسي "الأفلاطوني..." ثم إنه يدعو له بالتوفيق ويطلب الله أن يزيل العراقيل من طريقه، وأيضا يعتذر عن إيجاز في الشرح بسبب اضطراب الوقت" (16) لينتهي الجابري إلى التأكيد على أن هذا الكتاب هو سبب محنة ابن رشد لما فيه من انتقادات لاذعة للأوضاع السائدة في الأندلس في ذلك الوقت.

فيما يؤكد لنا البعض أن المنافسات والخصومات بين الأعلام في ذلك العصر كانت من أسباب هذه المحنة التي تعرض لها ابن رشد، بالإضافة إلى أن كتابات هذا الأخير جرّت عليه خصوماً وعداءات من عدة جهات في حين يرى عبد الرحمن بدوي أن الحملة كانت على ابن رشد من جانب الفقهاء بسبب اشتغاله بالفلسفة والفلك وبمؤلفات أرسطو، فيعتقد بدوي أن السبب السياسي هو الأصل في المحنة، فالنزاع مشتعل بين المنصور الموحدي وبين النصارى الإسبان، مما اضطر المنصور للتقرب من العامة على حساب المشتغلين بالفلسفة؛ وذلك لأن الحكام في مثل هذه الظروف السياسية، وعندما تضطر للدفاع عن البلاد لا بد لها من تجميع الشعب حولها للدفاع عن البلاد، فيما يرى الجابري سبباً آخر لنكبة ابن رشد لم يرد على لسان الروايات السابقة بقوله: " إن من أسباب نكبته هذه اختصاصه بأبي يحيى أخي المنصور والي قرطبة، ثم لا شيء بعد ذلك(17)." ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن الروايات اختلفت حول أسباب المحنة الرشدية، فقد أحاطت بها عدة عوامل، منها – العامل الديني والعامل الشخصي- ، والعامل السياسي الذي يبقي له الاثر الاكبر في هذه المحنة.

تلك هي الظروف والملابسات التي أحاطت بمحنة ابن رشد وهي نفسها التي تفسر سبب وتاريخ تأليف كتبه، وهذان الأمران سبب وتاريخ التأليف لا يزالان موضع تخمينات تحاول تفسير محنته.

و في نظرنا، فإن لم يحاكم ولم تصادر كتبه ولم تحرق بسبب الدين الذي اتخذه خصومه غطاء ظلماً وعدواناً، كما جرت بذلك عادة المستبدين وأعوانهم، وإنما حُوكم بسبب كتابه الذي أدان فيه الاستبداد دون هوادة أو خوفٍ من أحد.

ولا يفهم من هذا أن ابن رشد كان متواطئاً مع الأمير أبي يحي، أو أنه كان طامعاً في مركز سياسي، بل إن خطـاب ابن رشد هنا كان خطاب رجل خالـي الذهن من أية طموحات سياسية واهنة، فالرجل كان على مشارف السبعين من عمره، وقد سبق له أن تولى القضاء واشتكى من أنه

يأخذ منه أوقاتاً كان يفضل أن يقضيها في مشاريعه العلمية التي لم يكن يتسع لها ليله ولا نهاره، ومع أنه كتب هذا الكتاب بطلب من الأمير فقد كتبهُ كما فعل في نصوصه الأخرى التي كتبها بطلب من الأمراء والأصحاب وهي كثيرة (18) ، هذه هي أهم التعليلات لحادثة استبعاد ابن رشد عن بلاط الخلافة ونفيه خارجاً، لكننا نستطيع أن نقول بأن تلك الحوادث التي ذكرناها لم يكن لها صلة بالعقيدة، حيث علل بعض المؤرخين بأن سبب محنته هو مس العقيدة وخدش الإيمان، ولكن يمكن القول بأن ابن رشد لم يحصل له أن مس تلك العقيدة، وكل هذه الأسباب التي يذكرها المؤرخون حسب اطلاعنا على بعض من أرائه ، نرى أنها ليست سوى مظهر من مظاهر الكيد والدس تمثلت في مجموعة من الشباك التي نُصبت حول ابن رشد للإيقاع به والقضاء عليه، تلبيةً لما في نفوسهم من كراهية وحقد وحسد. ولو كانت محنة ابن رشد سببها خللاً في إيمانه، أو زيغاً في عقيدته، لما رضي عنه الخليفة مهما توسط الوسطاء وشفع الشفعاء، فإيمان الخليفة لم يتغير، وخلل العقيدة لا يجبر بشفاعة شفيع.

إن حرق كتب ابن رشد والذي كان بأمر من الخليفة كان شديد الوطأة على ابن رشد وأنصاره، بل على كل رجال الفكر، وخاصة المهتمين بالتأليف الفلسفي، إذ أمر الخليفة بإحراق كتب الفلاسفة ما عدا كتب الطب والحساب ومبادئ علم الهيئة، وكانت تجمع أكداسا في الشوارع، وتحرق بين زمجرات المزمجرين ولعنات اللاعنين، ولما هدأت الحال أصدر الخليفة أمراً بإخلاء سبيل ابن رشد وإباحة الفلسفة، وفيما يخص الإفراج عن ابن رشد فهناك من يرى أن بعضاً من وجهاء إشبيلية توجهوا إلى المنصور توسطاً للإفراج عنه فلبّى لهم طلبهم، وتم استدعائه لبلاط مراكش حيث كان أجلهُ في العاشر من كانون الأول سنة 1198م، وله من العمر اثنان وسبعون سنة، ثم نقل رفاته بعد ثلاثة أشهر إلى قرطبة حيث دفن مع الراحلين من أسرته، وهناك توارى آخر علم من أعلام الفلسفة اليونانية العربية(19).

لقد كانت الفلسفة عاملاً رئيساً في محنة ابن رشد، حيث تغلب الحزب الديني على الحزب الفلسفي، فمحنته وإن اختلفت سرديات المعاصرين لذكرها، فهي محنة فيلسوف وإن كان قد شاركه فيها من لم يكن من الفلاسفة، كالفقهاء والأدباء والشعراء.

ومما سبق يمكن القول بأن ابن رشد قد استفاد من خزانة أسرته، خاصة جده وأبيه على الأقل في العلوم العربية والدينية ولا بد أن يكون قد تشبع بوجهات نظرهم وآرائهم، فكان عالماً وفقيهاً

وفيلسوفاً جمع كل هذه العلوم وتفنن فيها، فيما لم تكن السياسة تعني لهُ شيئاً بقدر أنها تُلهي أو تشغل صاحبها عن إعمال الفكر، والإبداع.

الخاتمة:

وفي نهاية بحثنا هذا يمكن القول ان ابن رشد تعرض لحملة اضطهاد قاسية نتيجة معارضة بعض رجال الدين لفكره، بالرغم من أنه كان يحظى بدعم ورعاية الخليفة الأب "يوسف" خلال تلك الفترة، فما تفحصناه من نصوص لبعضٍ مماً أرخ لابن رشد تظهر فيه نظرات ابن رشد الثاقبة لكل قضية اجتماعية وقيمية واقتصادية وسياسية، فبينَ لنا أن السياسة لها أصحابها، وأنها عالم مغاير لعالم الفلسفة، فالأولى لا تستوجب الثبات في الرأي، وأنها تتباين بحسب المواقف والاتجاهات التي تنتاب أصحابها لهذا لم يغُصّ في أعماقها وأكتفى بالوقوف عند شاطئها، أما الثانية - الفلسفة - فتمتاز بالثبات والجِدّة، وتعتمد على التأمل والتفكير، فكانت هاجسه منذُ الصغر، وامتهنها وعمل بها فيما بعد.

إلا أن هذه النعمة تحولت إلى نقمة عليه في عهد الخليفة الابن المنصور، الذي اتخذ موقفًا معاديًا تجاه فلسفة ابن رشد الذي حاول بجهدٍ كبير، التوفيق بين الفلسفة والدين، وبين الشريعة والحكمة، إلا أن مساعيه هذه قوبلت برفضٍ شديد من قبل تيار المحافظين، الذين اعتبروا هذا الفكر خروجاً على الدين، ليجد ابن رشد نفسه ضحيةً لذلك التيار المتعصب الذي لم يتقبل فكره الحر، حتي بلغت هذه المأساة ذروتها عندما صدر قرار بحرق مؤلفاته وكتبه، وهو القرار الذي يمثل خسارة فادحة للأمة الإسلامية، فقد حُرمت الأمة من الاطلاع على العديد من العلوم والأفكار المستنيرة التي أفنى ابن رشد عمره في تدوينها.

وقد تبين لنا أن محنتهُ كانت نتيجة مباشرة للصراع الفكري العميق بين الفلسفة والدين في العالم الإسلامي خلال تلك الحقبة الزمنية، وقد شهدت تلك الفترة وجود تيارين متصارعين: الأول، تيار الفلاسفة بقيادة ابن رشد، والثاني، تيار المحافظين الذي تمثل في الفقهاء، هذا الصراع الفكري بلغ ذروته عندما اصطدم تيار الفلسفة بتيار الفقهاء، مما أدى إلى ما يُعرف بمحنة ابن رشد والتي عُرفت فيما بعد بالنكبة، وتجلت هذه النكبة في محاكمته، وإدانته، ثم نفيه لاحقاً.

وفي الختام تبين لنا أن محنة ابن رشد تمثل لحظة فارقة في التاريخ الإسلامي، حيث يتم الاهتمام بالعلاقة التي تربط بين الفلسفة والدين والسياسة، وبالرغم من أن محنته تلك أدت إلى تهميشه في العالم الإسلامي، إلا أنها ساهمت وبشكل غير مباشر في نقل إرثه الفلسفي إلى الغرب، الأمر الذي جعله أحد أبرز الفلاسفة في تاريخ البشرية.

الهوامش:

(1) محمد لطفي جمعة : أعلام و نوابغ ابن رشد تاريخه وفلسفته ، سوسة ، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، ص30(د. ت)

(2) محمد عابد الجابري : المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ،ط1، 1995 ف، ص120

(3) المرجع السابق : ص 120

(4) المرجع السابق : ص 120

(5) محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق وفي المغرب، القاهرة، 1927 ف، ص.145

(6) انظر: محمد عابد الجابري المثقفون في الحضارة العربية، مرجع سابق : ص122– 121

(7) انظر المرجع السابق : ص 123

(8) انظر المرجع السابق : ص 124

(9) محمد عايد الجابري، ابن رشد سيرة وفكر، بيروت، لبنان،ط1998،1ف، ص 62

(10) فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، تقديم دونيس العكرة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1981ف، ص 49 – 48

(11) محمد بيصار : فلسفة الوجود والخلود، دار الكتاب اللبناني، ط3، 1973 ص 49– 48

(12) انظر محمد عابد الجابري : ابن رشد سيرة وفكر، مرجع سابق، ص 64 – 63

(13) انظر محمد عابد الجابري : المثقفون في الحضارة، مرجع سابق، ص130– 129

(14) انظر محمد عابد الجابري: ابن رشد سيرة وفكر، مرجع سابق، ص 63 – 64

(15) المرجع سابق: ص 66-67

(16) محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مرجع سابق ص152

(17) المرجع السابق: ص 127

(18) محمد عابد الجابري: ابن رشد سيرة وفكر، مرجع سابق ، ص 67

(19) حنا الفاخوري، خليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية، جـ 2، بيروت، دار الجيل، ط 3، 1993 ف ، ص.387

المراجع :

(1)محمد لطفي جمعة : أعلام و نوابغ ابن رشد تاريخه وفلسفته، سوسة ، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، (د. ت)

(2) محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق وفي المغرب، القاهرة، 1927 ف

(3) محمد عايد الجابري: ابن رشد سيرة وفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1998ف.

(4) فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، تقديم دونيس العكرة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر .

(5) محمد بيصار : فلسفة الوجود والخلود، دار الكتاب اللبناني، ط3، 1973

(6) محمد عابد الجابري : المثقفون في الحضارة العربية ، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1995ف ص152

(7) حنا الفاخوري، خليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية جـ 2، بيروت، دار الجيل ، ط 3، 1993 ف، ص387